سورة الأحزاب

هى مدنية نزلت بعد آل عمران .

وعدة آيها ثلاث وسبعون .

ووجه اتصالها بما قبلها تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ماأوحى إليه من ربه مع التوكل عليه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٣)

شرح المفردات

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وتوكل على الله : أى فوض أمورك إليه ، الوكيل : الحافظ للأمور .

المعنى الجملى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبى صلى الله عليه وسلم أن

يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات .

الإيضاح

(يأيها النبى اتق الله) أى يأيها النبى خف الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، وواجب حقوقه عليك ، وترك محارمه ، وانتهاك حدوده .

والخلاصة : يأيها المخبر عنا ، المأمون على وحينا ، اثبت على تقوى الله ، ودم عليها .

ولما وجه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمر بتقوى الولىّ الودود ـ أتبعه بالنهى عن الالتفات نحو العدو الحسود ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين) أى ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك : اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المؤمنين ، حتى نجالسك ، والمنافقين الذين يظهرون لك الإيمان والنصيحة ، وهم لايألونك وأصحابك إلا خبالا ، فلا تقبل لهم رأيا ، ولا تستشرهم مستنصحا بهم ، فإنهم أعداؤك ، ويودون هلاكك ، وإطفاء نور دينك .

روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقا ، وكان يُلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعا ؛ فحذره الله منهم ، ونبهه إلى عداوتهم .

ثم علل ما تقدم بقوله :

(إن الله كان عليما حكيما) أى إن الله عليم بما تضمره نفوسهم ، وما الذى يقصدونه من إظهار النصيحة ، وبالذى تنطوى عليه جوانحهم ، حكيم فى تدبير أمرك ، وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع .

والخلاصة : إنه تعالى هو العليم بعواقب الأمور ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وتدبير شئون خلقه .

ثم أكد وجوب الامتثال بأن الآمر لك هو مربيك فى نعمه ، الغامر لك باحسانه ، فهو الجدير أن يتبع أمره ، ويجتنب نهيه ، فقال :

(واتبع ما يوحى إليك من ربك) أى واعمل بما ينزله عليك ربك من وحيه ، وآى كتابه .

ثم علل ذلك بما يرغبه فى اتباع الوحى ، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فقال :

(إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى إن الله خبير بما تعمل أنت وأصحابك ، لايخفى عليه شىء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء .

ثم أمر رسوله بتفويض أموره إليه وحده ، فقال :

(وتوكل على الله) أى وفوض أمورك إليه وحده ، واعتمد عليه فى شئونك .

(وكفى بالله وكيلا) أى وكفى به حافظا ، يوكل إليه جميع الشئون ، فلا تلتفت فى شىء من أمرك إلى غيره .

والخلاصة : حسبك الله ، فإن أراد نفعا لايدفعه أحد عنك ، وإن أراد ضرا لم يمنعه منك أحد .

مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)

شرح المفردات

جعل : أى خلق ، ويقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريدون أنت محرمة علىّ كما تحرم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يُجرون على المظاهر منها حكم الأم ، والأدعياء : واحدهم دعىّ ، وهو الذى تدعّى بنوته ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، السبيل : أى طريق الحق ، أقسط : أى أعدل ، ومواليكم : أى أولياؤكم فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم — ضرب لنا مثلا يبين أنه لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن المرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صدّ عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وهكذا لاتجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبنى فى إنسان.

روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر رضى الله عنهما «أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم) الآية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل .

وكان من خبره أنه سبى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ؛ فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد ؛ فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ؛ قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ،

وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنَّى حكم الابن حقيقة فى جميع الأحكام التى تعطى للابن .

الإيضاح

(ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) كان أهل مكة يقولون : إن مَعْمَرًا الفِهْرِىّ له قلبان لقوة حفظه ، وروى أنه كان يقول : إن لى قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وكانت العرب تزعم أن كل أريب له قلبان ، فأكذب الله فى هذه الآية قوله وقولهم :

(وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ولم يجعل الله لكم أيها الرجال نساءكم اللائى تقولون لهن : أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا ـ أمهاتكم ، بل جعل ذلك من قبلكم كذبا وألزمكم عقوبة .

وقد كان الرجل فى الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته صارت حراما عليه حرمة مؤبدة ، فجاء الإسلام ومنع هذا التأبيد ، وجعل الحرمة مؤقتة ، حتى يؤدى كفّارة (غرامة) لانتهاكه حرمة الدين ، إذ حرم ما أحل الله .

(وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه ، وهو ابن غيره ـ ابنا له بدعواه فحسب .

وفى هذا إبطال لما كان فى الجاهلية وصدر الإسلام من أنه : إذا تبنى الرجل ابن غيره أجريت عليه أحكام الابن النسبى ، وقد تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة زيد بن حارثة ، والخَطّابُ عامر بن ربيعة وأبو حذيفة سالما .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(ذلكم قولكم بأفواهكم) أى هذا الذى تقدم من قول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، ودعاء من ليس بابنه أنه ابنه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لاحقيقة له ، فلا تصير الزوجة أما ، ولا يثبت بهذه دعوى النسب .

(والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) أى والله هو الصادق ، الذى يقول الحق و بقوله : يثبت نسب من أثبت نسبه ، و به تكون المرأة أمّا إذا حكم بذلك ، وهو يبين لعباده سبيل الحق ، و يهديهم إلى طريق الرشاد ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عزّ اسمه .

وخلاصة ما سلف :

(١) إنه لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه ، و إما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريدا للشىء كارها له ، وظانا له موقنا به فى حال واحدة ، وهذا لن يكون .

(٢) إنه لم ير أن تكون المرأة أما لرجل وزوجا له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها الجناح ، والمرأة مستخْدَمة فى المصالح الزوجية على وجوه شتى .

(٣) لم يشأ فى حكمته أن يكون الرجل الواحد دعيّا لرجل وابنا له ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولايجتمع فى الشىء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل .

ولما ذكر أنه يقول الحق فصل هذا الحق بقوله :

(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) أى انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم ـ لآبائكم ، فقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا زيد بن محمد ، فذلك أعدل فى حكم الله وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم .

(فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) أى فإن أنتم أيها الناس لم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم ؟ حتى تنسبوهم إليهم ، وتلحقوهم بهم ؛ فهم إخوانكم فى الدين إن كانوا قد دخلوا فى دينكم ، ومواليكم إن كانوا محررين أى قولوا : هو مولى فلان ، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه قبل .

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان .

(ولكن ما تعمدت قلوبكم) ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين .

وخلاصة ما سلف : إنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأ غير مقصود ، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون ، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال فى الآية : « لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه » .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله ستارا لذنب من ظاهر من زوجته، وقال الزور والباطل من القول ، وذنب من ادعى ولد غيره ابنا له إذا تابا وراجعا إلى أمر الله وانتهيا عن قيل الباطل بعد أن نهاهما ؛ رحيما بهما فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما .

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف : أن الدعىّ ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت أخى فى الدين ـ أردف ذلك ببيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لأن بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل

هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن ترك مالا ، فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا (عيالا) فليأتنى ، فأنا مولاه » .

وفى الصحيح أن عمر رضى الله عنه قال : « يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء ، حتى من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر » .

الإيضاح

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى النبى أشد ولاية ونصرة لهم من أنفسهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لايأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم ، ولاينهاهم إلا عما يضرهم ويؤذيهم فى دنياهم وآخرتهم ، أما النفس فإنها أمارة بالسوء ، وقد تجهل بعض المصالح ، وتخفى عليها بعض المنافع .

ومما يلزم هذا أن يكون حكمه نافذا فيهم ، مقدما على ما يختارونه لأنفسهم ، كما قال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وخلاصة ذلك : إنه تعالى علم شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، وشدة نصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم .

(وأزواجه أمهاتهم) أى هن منزلات منزلة الأمهات فى الحرمة والاحترام ،

والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات ، فلا يحل النظر إليهن، ولا إرثهن ولا نحو ذلك .

وكان التوارث فى بدء الإسلام بالحِلْف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوّة التى آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين الهجرة ، فقد آخى بين أبى بكر رضى الله عنه ، وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين الزبير ، وكعب بن مالك ، فغيَّر الله الحكم بهذه الآية :

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، وحق المهاجرين بحق الهجرة فيما كتبه الله ، وفرضه على عباده .

والخلاصة : إن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها ، وأبطلت حكما شرع لضرورة عارضة فى بدء الإسلام ، وهو الإرث بالتآخى فى الدين ، والتآخى حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار حين كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قرابته وذوى رحمه .

ثم استثنى من ذلك الوصية ، فقال :

(إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) الأولياء هنا المؤمنون والمهاجرون والمعروف الوصية أى إلا أن توصوا لهؤلاء بوصية ، فهم أحق بها من القريب الوارث .

ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل فى الإرث ، وهو الحكم الثابت فى كتابه الذى لا يغيّر ولا يبدل ، فقال :

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى إن هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الذى لا يبدل ولا يغير ، وإن كان قد شرع غيره فى وقت ما لمصلحة عارضة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ماهو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه التشريعى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الإسلام ، ثم أبطلت ونسخت ـ أتبع ذلك بذكر ما فيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار ، فقال : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ » .

الإيضاح

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) أى واذكر أيها الرسول العهد والميثاق الذى أخذه الله على أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء ليقيمنّ دينه ، ويبلغنّ رسالته ، ويتناصرنّ كما قال فى آية أخرى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال : « وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولا ، وأمره بشىء وقبله كان ذلك ميثاقا

عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عمايقول و يفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، حتى لايزيد ولاينقص فى الرسالة .

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين ، فقال :

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) أى وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، ومافعل أقوامهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة .

(وأعدّ للكافرين عذابا أليما) أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعدّ لهم ثوابا عظيما ، و يسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعدّ لهم عذابا أليما .

غزوة الأحزاب ــ وقعة الخندق

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ، هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا

خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

شرح المفردات

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، و بنو أسد يقودهم طُلَيْحة ، وغطفان يقودهم عُيَيْنَة بن حصن ، و بنو عامر يقودهم عامر بن الطُّفَيْل ، و بنو سُلَيْم يقودهم أبو الأعور السُّلَمى ، و بنو النَّضير من اليهود ، ورؤساؤهم حُيَيّ بن أخطب ، وأبناء أبى الحُقَيق ، و بنو قُرَيْظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه كعب بسعى حيىّ ، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، والجنود التى لم تروها : هى الملائكة من فوقكم : أى من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ومن أسفل منكم : أى من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، و بنى كنانة ، وأهل تهامة ، زاغت الأبصار : أى انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، و بلغت القلوب الحناجر : يراد به فزعت فزعا شديدا ، ابتلى المؤمنون : أى اختُبروا وامتُحِنوا ، وزلزلوا زلزالا شديدا : أى اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع ، وكثرة العدوّ ، والذين فى قلوبهم مرض : قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالإسلام ، إلا غرورا : أى إلا وعد غرور لا حقيقة له ؛ يثرب : من أسماء المدينة ، لامقام لكم : أى لا ينبغى لكم الإقامة هاهنا ، عورة : أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال ، ونخاف عليها سرق السرّاق ، والأقطار : واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، والفتنة : الردة ومقاتلة المؤمنين ، آتوها : أى أعطوها ،

وما تلبثوا بها : أى وما أقاموا بالمدينة، يعصمكم : أى يمنعكم ، المعوّقين : أى المثبطين عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلم إلينا : أى أقبلوا إلينا ، والبأس : الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، أشحة : واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، تدور أعينهم : أى تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف ، سلقوكم : أى آذوكم بالكلام ، بألسنة حداد : أى ألسنة ذربة سلطة تفعل فعل الحديد ، أشحة على الخير : أى بخلاء حريصين على مال الغنائم ، أحبط الله أعمالهم : أى أبطلها لإضمارهم الكفر ، لو أنهم بادون فى الأعراب : أى خارجون إلى العدو ، مقيمون بين أهله ، أسوة : أى قدوة ، والمراد به المقتدى به ، قضى نحبه : أى فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، والغيظ : أشد الغضب ، وكفى الله المؤمنين القتال : أى وقاهم شره ، عزيزاً : أى غالبا مستوليا على كل شىء ، ظاهروهم : أى عاونوهم ، من أهل الكتاب : أى من بنى قريظة ، من صياصيهم : أى من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به ؛ قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرْعَى وأصبحت نســـاء تميم يبتدرْن الصياصيا

وقذف : أى ألقى ، والرعب : الخوف الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه ــ ذكر هنا تحقيق ماسلف فأبان سبحانه أنه أنعم على عباده المؤمنين، إذ صرف عنهم أعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق .

وتفصيل هذا على ما قاله أرباب السير : إن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعَيْلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماؤها

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحة ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينـــا وثبّت الأقدام إن لاقينا

وفى أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ، فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المِعْوَل من سلمان وضربها به ضربة صدعها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحِيَرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى قد رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمنّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لاتستطيعون أن تبرزوا ، فنزل : (وإذ يقول المنافقون) الخ ، ونزل : (قل اللهم مالك الملك) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزّبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت

مصادمات بين القوم كرّا وفرّا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك .

ثم إن نُعَيْم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدَعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لاتحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رُهُنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقيَّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لاتقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رُهُنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخْرَج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودبّ بينهم دبيب الفشل . ومما زاد فى فشلهم أن بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله منعنى أن أجيبك الضُّر والقُرّ ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى تردّه إلىّ ، انطلق ولاتحدث شيئا حتى تأتينى ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على

ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، و بلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل .

الإيضاح

(يأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) أى تذكروا أيها المؤمنون نعم الله التى أسبغها عليكم حين حوصرتم أيام الخندق وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ، ويهود بنى النضير الذين كانوا أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خَيْبَر ، فأرسلنا عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة أحصرتهم ، وسفت التراب فى وجوههم ، وأمر ملائكته ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف الرعب فى قلوب الأعداء ، حتى قال طُلَيْحة بن خويلد الأسدى : إن محمدا قد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال .

قال حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتى بخبر القوم : خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نارلهم توقد ، و إذا رجل أدهم ضخم (أبو سفيان) يقول : الرحيلَ الرحيلَ لامُقام لكم ، و إذا الرجل فى عسكرهم مايجاوز عسكرهم شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفُرُشهم ، والريح تضربهم ؛ ثم رجعت نحو النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلما صرت فى منتصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسا معتمّين قالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاك القوم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على عباده المؤمنين بذكر النعم التى أنعم بها عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم عام تألّبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله عليما بجميع أعمالكم من حفركم للخندق ، وترتيب وسائل الحرب لإعلاء كلمة الله ، ومقاساتكم من الجهد والشدائد ما لاحصر له ، بصيرا بها لايخفى عليه شىء منها ، وهو يجازيكم عليها « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

ثم زاد الأمر تفصيلا وبيانا ، فقال :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) أى حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد ، ومن بنى قريظة والنضير من اليهود ، ومن أسفله من قبل المغرب ، وكانوا من قريش ، ومن شايعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة وأهل تهامة .

(و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) أى وحين مالت الأبصار عن سننها ، وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، وخاف الناس خوفا شديدا ، وفزعوا فزعا عظيما ، وظنوا مختلف الظنون ، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز الله وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه، ويقول: هذا ماوعدنا الله ورسوله ، ومنهم منافق وفى قلبه مرض يظن أن محمدا وأصحابه سيُستأصلون ، ويستولى المشركون على المدينة ، وتعود الجاهلية سيرتها الأولى ، إلى نحو ذلك من ظنون لاحصر لها تجول فى قلوب المؤمنين والمنافقين ، على قدر مايكون القلب عامرا بالإخلاص مكتوبا له السعادة أو متشككا فى اعتقاده ليست له عزيمة صادقة .

ثم ذكر أن هذه الشدائد محصت المؤمنين ، وأظهرت المنافقين .

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى حين ذاك اختبر الله المؤمنين ومحصهم أشد التمحيص ، فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ الإيمان من المتزلزل ، واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو .

(و إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) أى وحين قال المنافقون كمُعتِّب بن قُشَير ، والذين فى قلوبهم ضعف فى الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام : ما وعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعدا باطلا يغرّنا به و يوقعنا فيما لاطاقة لنا به ، و يسلخنا عن دين آبائنا ، و يقول : إن هذا الدين سيظهر على الدين كله ، و إنه سيفتح لنا فارس والروم ، وها نحن أولاء قد حُصِرنا ها هنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته .

(و إذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا) أى وحين قالت جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبىّ وأصحابه : يا أهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل ، وقد يكون المعنى : لامقام لكم فى دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك وأسلموا محمدا إلى أعدائه .

(و يستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة) أى و يطلب جماعة منهم من النبى صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى بيوتهم وتركهم للقتال ، وهم بنو حارثة ، معتذرين بمختلف المعاذير كقولهم : إن بيوتنا مما يلى العدو ذليلة الحيطان يخاف عليها من السرّاق ، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون ، وهم مضمرون غير ذلك .

ثم بين السبب الحقيقى لهذه المقالة ، فقال :

(إن يريدون إلا فرارا) أى وما يريدون بالاستئذان إلا الفرار من القتال والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم مساعدة المؤمنين .

ثم بين وهن الدين وضعفه فى قلوبهم إذ ذاك ، وأنه معلق بخيط دقيق ينقطع بأدنى هزة ، فقال :

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) أى ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم ، ثم طلبوا إليهم أن يرتدوا عن دينهم و يرجعوا إلى شركهم بربهم ـ لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الهلع والجزع .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان لاقرار له فى نفوسهم ، ولا أثر له فى قلوبهم ، فهو لايستطيع مقابلة الصعاب ، ولامقاومة الشدائد ، فلا تعجب لاستئذانهم وطلبهم الهرب من ميدان القتال .

والخلاصة : إن شدة الخوف والهلع الذى تمكن فى قلوبهم مع خبث طويتهم ، وإضمارهم النفاق ـ يحملهم على الإشراك بالله والرجوع إلى دينهم عند أدنى صدمة من العدوّ تحصل لهم ، فإيمانهم طلاء ظاهرى لاأثر له فى نفوسهم بحال ، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذا ، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ .

ثم بين أن لهم سابقة عهد بالفرار وخوف اللقاء من الكماة ، فقال :

(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) أى ولقد كان هؤلاء المستأذنون وهم بنو حارثة قد هربوا يوم أُحد وفرّوا من لقاء عدوهم ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا ينكثوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم بين ما للعهد من حرمة ، فقال :

(وكان عهد الله مسئولا) أى وعهد الله يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويجازى عليه .

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : إن فراركم لايؤخر آجالكم ، ولايطيل أعماركم ، فقال :

(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أى قل لهؤلاء المستأذنين الفارّين من قتال العدو ومنازلته فى الميدان : لن ينفعكم الهرب ولايدفع عنكم ما أُبرم فى الأزل من موت أحدكم حتف أنفه ، أوقتله بسيف ونحوه ، فإن المقدر كائن لامحالة والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار ، وكان علىّ يقول عند اللقاء : دهم الأمر ، وتوقّد الجمر .

أىَّ يومىّ من الموت أفرّ يومَ لا يُقدر أم يوم قُدِر
يوم لا يُقدَر لا أرهَبُه ومن المقدور لا يُنجِى الحذَر

(وإذاً لاتمتّعون إلا قليلا) أى وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم الموت فمتعتم لم يكن ذلك التمتع إلا قليلا ، فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، فعمر تأكله الدقائق قليل وإن كثر ، كما قال أحمد شوقى بك :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

ولما كانوا ربما يقولون : بل ينفعنا لأنا طالما رأينا من هرب فسلم ، ومن ثبت فاصْطُلِم ـ أمره الله بالجواب عن هذا ، فقال :

(قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة) أى قل لهم : لاأحد يستطيع أن يمنع عنكم شرا من قتل أو بلاء قدره الله عليكم ، أو يؤتيكم خيرا إن لم يكن أراده الله .

والخلاصة : هل احترزتم فى جميع أعمالكم عن سوء فنفعكم الاحتراز ، أو اجتهد غيركم فى منع الخير عنكم فتمّ له ما أراد ؟ .

وإجمال القول : إن النفع والضر بيده سبحانه ، وليس لغيره فى ذلك تصريف ولا تبديل .

ثم أكد هذا بقوله :

(ولايجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا) أى ولايجد هؤلاء المنافقون وليا ينفعهم غير الله ولا نصيرا يدفع السوء عنهم .

وبعد أن أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بمقالة المنافقين لأهل المدينة وأمره بوعظهم ـ حذرهم بدوام علمه بمن يخون الله ورسوله بقوله :

(قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا) أى إن ربك أيها الرسول ليعلم حق العلم من يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصدونهم

عنه ، وعن شهود الحرب معه نفاقا منهم وتخذيلا عن الإسلام ، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالَوْا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار ، ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه مشهدا ، فإنا نخاف عليكم الهلاك .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس (يريدون أنهم قليلو العدد) ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

(ولايأتون البأس إلا قليلا) أى ولايأتون الحرب إلا زمنا قليلا ، فقد كانوا لايأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون ، فإذا غفلوا عنهم تسللوا لواذا وعادوا إلى بيوتهم .

ثم ذكر بعض معايبهم من البخل والخوف والفخر الكاذب ، فقال :

(١) (أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة ، فهم لايودون مساعدتكم لا بنفس ولا بمال .

(٢) (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى فإذا بدأ الخوف بكرّ الشجعان وفرّهم فى ميدان القتال ـ رأيتهم ينظرون إليك ، وقد دارت أعينهم فى رءوسهم فرقا وخوفا كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيته أسبابه ، فإنه إذ ذاك يذهب لبه ، ويشخص بصره ، فلا يتحرك طرفه .

(٣) (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى فإذا كان الأمن تكلموا فصيح الكلام ، وفخروا بما لهم من المقامات المشهودة فى النجدة والشجاعة ، وهم فى ذلك كاذبون .

قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق .

ثم بين ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم ، فقال :

(أشحة على الخير) أى هم بخلاء حريصون على الغنائم إذا ظفر بها المؤمنون ، لا يريدون أن يفوتهم شىء مما وصل إلى أيديهم .

والخلاصة : إنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة أشحاء .

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظةً وفى الحرب أمثال النساء العواتك

و بعد أن وصفهم بما وصفهم به من دنىء الصفات ـ بيَّن مادعاهم إليها ، وهو قلة ثقتهم بالله لعدم تمكن الوازع النفسى فى قلوبهم ، فقال :

(أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) أى هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدّقوا الله ورسوله ، ولم يخلصوا له العمل ، لأنهم أهل نفاق ، فأبطل الله أعمالهم ، وأذهب أجورها ، وجعلها هباء منثورا .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الإحباط هينا على الله لا يبالى به ، إذ هم قوم فعلوا ما يستوجبه و يستدعيه ، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله ، وتدل عليه حكمته .

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذى لحق بهم ، فقال :

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى هم من شدة الهلع والخوف ، وعظيم الدهشة والحيرة لا يزالون يظنون أن الأحزاب من غَطَفان وقريش لم يرحلوا ، وقد هزمهم الله ورحلوا ، وتفرقوا فى كل وادٍ .

و إجمال القول : إنهم لما لم يقاتلوا لجبنهم ، وضعف إيمانهم ، فكأنهم غائبون ، فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا ، وقد كانوا راحلين منهزمين لا يلوون على شىء .

(و إن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم) أى و إن يأت الأحزاب و يعودوا مرة أخرى تمنوا أن لو كانوا مقيمين فى البادية بعيدين عن المدينة ، حتى لا ينالهم أذى ولا مكروه ، و يكتفون بأن يسألوا عن أخباركم كل قادم من جانب المدينة ، وفى هذا كفاية لديهم لجبنهم ، وخور عزائمهم .

(ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أى ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم فى الكرة

السابقة ، ولم يرجعوا إلى المدينة ، وكان القتال قتال جلاد وكرّ وفرّ ، وطعن وضرب ، ومحاربة بالسيوف ، ومبارزة فى الصفوف ـ ما قاتلوا إلا قتالا يسيرا رياء وخوفا من العار ، لاقتالا يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر .

و بعد أن فصل أحوالهم ، وشرح نذالتهم ، وعظيم جبنهم ـ عاتبهم أشد العتب ، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله معتبر لو اعتبروا ، وأسوة حسنة لو أرادوا التأسى ، فقال :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) أى إن المُثُل العالية ، والقدوة الحسنة ماثلة أمامكم لو شئتم ، فتحتذون الرسول فى أعماله ، وتسيرون على نهجه لو كنتم تبتغون ثواب الله ، وتخافون عقابه إذا أزفت الآزفة ، وعدم النصير والمعين ، إلا العمل الصالح ، وكنتم تذكرون الله ذكرا كثيرا ، فإن ذكره يؤدى إلى طاعته ، و يحقق الائتساء برسوله .

وخلاصة ذلك : هلا اقتديتم بالرسول وتأسيتم بشمائله .

ولما ذكر سبحانه حال المنافقين ـ ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب ، فقال :

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون المخلصون لله فى القول والعمل ـ الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم العقول ، وتبلبلت لها الأفكار ، واضطربت الأفئدة ـ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه النصر فى نحو قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » ، وقوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » وقوله : « إنهم سائرون إليكم تسعا أو عشرا » أى فى آخر تسع ليال أو عشر من حين الإخبار .

وصدق الله ورسوله فى النصرة والثواب كما صدق الله ورسوله فى البلاء والاختبار وما زادهم ذلك إلا صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ما كان الله ورسوله قد وعدهم .

ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء ، واحتملوا البأساء والضراء ، فقال :

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا) أى ومن المؤمنين بالله والمصدقين برسوله رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء ، فاستشهد بعض يوم بدر ، و بعض يوم أُحد ، و بعض فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده ، وما غيروه وما بدلوه .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن أنس قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليَرَيَنَّ الله تعالى ما أصنع ، فشهد يوم أُحد ، فاستقبله سعد بن مُعاذ رضى الله عنه ، فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أُحد ، فقاتل حتى قتل ، فوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الخ .

وروى صاحب الكشاف أن رجالاً من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ومُصْعب بن عُمَير ، وجمع غيرهم .

ثم بيَّن العلة فى هذا الابتلاء والتمحيص ، فقال :

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم)

أى إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر كل منهما جليا واضحا كما قال : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقال : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ، ووفائهم له به ، ويعذب المنافقين الناقضين لعهده ، المخالفين لأوامره ، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلاقوه ، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم ، وعملوا صالح الأعمال غفر لهم ربهم ما أسلفوا من السيئات ، واجترحوا من الآثام والذنوب .

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة قال :

(إن الله كان غفورا رحيما) أى إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد التوبة ، وفى هذا حثٌّ عليها فى كل حين ، وبيان نفعها للتائبين .

ثم رجع يحكى بقية القصص وفصل ذلك تتميما للنعمة التى أشار إليها إجمالا بقوله : « فأرسلنا عليهم ريحًا وجنوداً لم تروها » ووسط بينهما بإيضاح ما نزل بهم من الطامة التى تحير العقول والأفهام ، والداهية التى زلت فيها الأقدام وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال ، لإظهار عظمة النعمة وإبانة جليل خطرها ، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها فقال :

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا الذين كفروا بالله ورسوله من قريش وغطفان بغمهم بفوت ما أمّلوا من الظفر وخيبتهم فيما كانوا طمعوا فيه من الغلبة والنصر على محمد وصحبه ، إذ لم يصيبوا مالاً ولا إسارا ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلاشىء بعده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

وروبا أيضا عن عبد الله بن أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزّل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى محمد بن إسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوهم » وقد تحقق هذا فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم حتى فتح الله تعالى مكة .

(وكان الله قويًّا عزيزاً) أى وكان الله عزيزا بحوله وقوته فردهم خائبين لم ينالوا خيرا .

ولما قص أمر الأحزاب وذكر ما انتهى إليه أمرهم ذكر حال من عاونوهم من اليهود فقال :

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) أى وأنزل الله يهود بنى قريظة الذين عاونوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بعد أن نقضوا العهد بسفارة حُيىّ بن أخطب النضيرى ، إذ لم يزل بزعيمهم كعب ابن أسد حتى نقض العهد وكان مما قاله له : جئتك بعزّ الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون ها هنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله جئتنى بذل الدهر ، ويحك يا حيىّ إنك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل له فى الذروة والغارب (يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حيىّ إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون أسوتهم .

ولما أيد الله المؤمنين وكبت أعداءهم وردهم خائبين ورجع إلى المدينة ووضع الناس

السلاح ـ أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن انهض إلى بنى قريظة من فورك ، فأمر الناس بالسير إليهم ، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر وقال صلى الله عليه وسلم « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة) فسار الناس فأدركتهم الصلاة، فصلى بعض فى الطريق، وقال آخرون: لا نصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين .

(وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً) أى وألقى الرعب فى قلوبهم حين نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فنزلوا على حكم سعد بن مُعاذ سيد الأوس ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم، فأحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إن هؤلاء نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت ، فقال رضى الله عنه : وحكمى نافذ فيهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فخدّت فى الأرض وجىء بهم مكتوفى الأيدى فضربت أعناقهم وكانوا ما بين سبعمائة وثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ، وسبى أموالهم .

والخلاصة — إنه قذف الرعب فى قلوبهم حتى أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأموالهم للأسر .

(وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها) أى وأورثكم مزارعهم ونخيلهم ومنازلهم وأموالهم التى ادخروها وماشيتهم من كل ثاغية وراغية ، وأرضاً لم تطئوها وهى الأرضون التى سيفتحها المسلمون حتى يوم القيامة ، قاله عِكْرِمة واختاره أبو حيان .

(وكان الله على كل شىء قديراً) أى وكان الله قديراً على أن يورثكم ذلك ، وعلى أن ينصركم عليهم ، إذ لا يتعذر عليه شىء أراده ، ولا يمتنع عليه فعل شىء حاول فعله .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

شرح المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ، فتعالين : أى أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين ، أمتعكن: أى أعطكن المتعة، وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة ـ مُلاءة ـ على حسب السعة والإقتار ، وأسرحكن : أى أطلقكن ، سراحا جميلا : أى طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة ، بفاحشة : أى فعلة قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله ، مبينة : أى ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين ، ضعفين : أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه ، يسيرا : أى هيناً لايمنعه عنه كونهن نساء النبى ، بل هذا سبب له .

المعنى الجملى

بعد أن نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه رضى الله عنهن أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقمدن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخول ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكل والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

روى أحمد عن جابر رضى الله عنه قال : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس ببابه جلوس ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر لأكلمنّ النبى صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، قال : يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال «هنّ حولى يسألنى النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول: تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال لها إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو؟ فتلا عليها : « يأيها النبى قل لأزواجك » الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوىّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائى .

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين ، لأنهن أمهات المؤمنين وموضع التبجلة والكرامة ، إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الإسلامية ، ومنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف ، فأجدر بهن أن يكنّ المُثُل العليا فى ذلك ، ويكنّ قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ، ويا لها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

الإيضاح

(يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرحكنّ سراحا جميلا) أى يأيها الرسول قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى خلتين : أولاهما أن تكنّ ممن يحببن لذّات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكنّ عندى مقام ، إذ ليس عندى شىء منها ، فأقبلن علىّ أعطيكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق ، تطييباً لخاطرهن وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق ، وهى كسوة تختلف على حسب الغنى والفقر واليسار والإقتار كما قال تعالى : « وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ » ثم أسرحكن وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله : « إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة وحفصة وأمّ حَبيبة وسَوْدَة وأم سلَمة رضى الله عنهن ؛ وأربع من غير القرشيات : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحرث الهلالية ، وصفية بنت حيّ بن أخطب النضيرية ، وجُوَيْرية بنت الحرث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك و بدأ بعائشة وكانت أحبّ أهله إليه فخيّرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

(و إن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيما) أى و إن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنهما فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تستحقر الدنيا وزينتها دونه ، كفاء إحسانهن .

والخلاصة — أنتنّ بين أحد أمرين : الإقامة معه والرضا بما قسم الله لكنّ والعمل لطاعة الله ، وأن يمتعكن و يفارقكن إن لم ترضين بذلك .

و بعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله ـ أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

(يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) أى من يعص منكن الرسول صلى الله عليه وسلم و يطلب ما يشق عليه و يضق به ذرعا و يغتم لأجله ـ يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعفى عذاب غيرها ، لأن قبح المعصية منهن أشد ، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشد منه للجاهل العاصى ، وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذى لايحابى أحداً لأجل أحد ، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

و إلى هنا تم ما أردنا من تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وكان الفراغ من مسودّته صبيحة يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .